الإنسان معيار الحضارة

الدكتور شافي بن سفر الهاجري

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة

المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

الإنسان معيار الحضارة

الدكتور شافي بن سفر الهاجري(*)

ما يعلن عن عولمة الثقافة وإنسانيتها لا يعدو أن يكون شعارات لتذويب الحضارات في الحضارة الغالبة، وما طروحات مؤتمرات السكان إلا دليل واضح على تعميم مفاهيم الحضارة المادية.. والأمر المخيف في عالم الغد هو محاولة فرض تلك القيم من خلال المنابر الدولية.

لعل في مقدمة الإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة، نوعية الإنسان وطبيعة القيم التي يلتزم بها، ومدى قابليتها لإقامة حضارة تعترف بإنسانية الإنسان، وتجاهد في سبيل تحقيق حريته وعدم إكراهه على عقيدة لا يختارها، وتحول دون تسلط الإنسان على الإنسان، وتلغي التمييز بجميع أبعاده، وتجعل ميزان الكرامة العمل الصالح.

ولبيان مدى قدرة إنسان الإسلام على تقديم البديل الحضاري ومعالجة أزمة الحضارة، لا بد من التوقف قليلاً عند الإنسان في الحضارة الإسلامية والإنسان في حضارة (الآخر).

ذلك أن الإنسان هو معيار الحضارة وهدفها ووسيلتها.. وبقدر فهم كينونة هذا الإنسان ودوره، بقدر ما ينعكس ذلك على رؤيته الحضارية وقدرتها على النهوض وتحقيق إنسانية الإنسان، التي يستعين بها على تحقيق العمران المادي.. لذلك جاءت مساهمتنا في إطار محاولة قراءة بعض الملامح لهذا الإنسان في الرؤية الإسلامية،

(*) باحث.. أكاديمي .. (قطر).

والحضارات والثقافات الأخرى، والدور الذي يمكن أن يناط به لإنقاذ حضارة عالم الغد، وإلحاق الرحمة بإنسانها.

حقيقة الإنسان (الإنسان محل الثقافة)

إن أي تعامل مع الإنسان، تربية وتثقيفًا وتعليمًا وإعلامًا، لا بد أن يُسبَق بتصور دقيق عن كينونة هذا الإنسان، وما هو مفطور عليه من الطاقات والقدرات والميول والغرائز، التي يمكن الارتكاز إليها أثناء التعامل معه، كما لا بد من تصور دقيق عن الوظيفة التي يمكن أن يؤديها، والدور الذي يمكن أن يقوم به، والهدف الذي يسعى لتحقيقه، وموقعه من هذا الكون من بين الخلائق جميعًا، لأن أية جهود في التربية والتعليم والثقافة وأية مشاريع للنهوض والتطوير والتغيير والتنمية...إلخ، لا تمتلك هذا التصور عن الإنسان ولا تحسن التعامل معه في ضوء ذلك عاقبتها الفشل والإحباط ولو نجحت إلى حين.

وحيث إن الإنسان بشكل عام محل المناهج المتنوعة، ومحاولة تشكيله والارتقاء به هو هدف كل ثقافة وحضارة، كان من المفيد والمطلوب أن نقدم تصورًا عن كينونة هذ المخلوق وموقعه في هذا الكون، ورسالته من خلال ما تمنحنا معرفةُ الوحي في الكتاب والسنة من رؤية، لأن ذلك يشكل مدخلاً لا بد منه لبناء أي منهج أو نقده أو تصويبه أو تقويمه ومعايرته.

وقد تكون حقيقة المشكلة أو القضية المعروضة في هذا الحقل دون سائر الحقول المعرفية والعلمية الأخرى، أن الإنسان المراد تثقيفه وتربيته والنهوض به، والذي هو موضوع البحث ومحله وهدفه، هو في الوقت نفسه أداة البحث ووسيلته، لذلك تبقى الحاجة من الناحية المعرفية قائمة إلى مرتكزات يستند إليها، ومنطلقات يتحرك من خلالها، وحقائق ثابتة يعتمدها، وقيم معصومة تشكل له المرجعية، حتى لا يضل ويشقى

ويخضع لمجازفات يحكمها ظرف الزمان والمكان والكسب العلمي المحدود والموروث الثقافي والديني والأهواء والرغبات.

هذه المعرفة الأساس هي التي تشكل الإطار الذي لا يمكن الاستغناء عنه في النظر للإنسان وكيفيات التعامل معه، والتي لا بد أن تتحصل من مصدر معرفي محيط بعلم الإنسان، خارج عنه، ونعني هنا معرفة الوحي في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:14).

وهنا قضية، يمكن أن يكون التذكير بها، في غاية الأهمية، وهي أن الحضارة الإسلامية التي جاءت ثمرة لهذه المعرفة، هي في حقيقتها، وتاريخها، ونواتجها، حضارة إنسانية، لا تخص جنسًا، أو لونًا، أو عرقًا، أو منطقة جغرافية، أو طبقة اجتماعية، وإن كان العرب وبلادهم هم قاعدتها البشرية وهم حملتها الأوائل، إلا أنها استطاعت أن تتجاوز بدعوتها وممارستها كل الفوارق القسرية التي لا يد للإنسان في وجودها، وجعلت معيار الكرامة (التقوى)، وهي في حقيقتها فعلاً كسبيًا، بمقدور كل إنسان أن يرقى إليه، وليس أمرًا قسريًا خارجًا عن قدرة الإنسان وإرادته، قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:13).

ومن اللافت للنظر حقًا أن آيات القرآن الكريم المكية إنسانية الخطاب، جاءت لتؤكد الوحدة الإنسانية، وتحطم الفوارق التمييزية، وذلك قبل أن يكون للمسلمين أمة، أو دولة، أو حكومة، أو موقعًا جغرافيًا.. كانت الوحدة الإنسانية، أو تعزيز وحدة الأصل البشري، من المقومات الأساس التي نص عليها الوحي، ولم يدع مجالاً للمساومة عليها، أو يسمح بتجاوزها، وكان عطاء الوحي موجهًا إلى العالمين،

بل لقد كانت الغاية من الرسالة الإسلامية وجماع إنتاجها الحضاري، هو إلحاق الرحمة بالناس كافة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:107)، وكان الإسلام أول من دعا إلى فكرة المواطن العالمي، في أمة الإسلام، والتمتع بالحقوق والواجبات كافة التي يتمتع بها المواطن في دولة الإسلام، بمجرد أن يعتنق الإنسان الإسلام، كائنًا من كان، وبذلك انتفت عن الإسلام وحضارته إصابات العنصرية، والعرقية، ولوثة الشعب المختار، التي لم تبرأ منها الثقافات البشرية بشكل أو بآخر.

وبذلك فالإسلام بطبيعته يناقض التعصب والانغلاق، ويعتبره من الجاهلية وآفاتها، ونخوتها، وتعاظمها بالآباء، وسفهها، لأن أسوار التعصب المحتمل أو العارض لا تلبث أن تكسر بمجرد الإيمان والدخول في الإسلام، بينما نرى الثقافة والحضارة الغربية هي حضارة اللون والعرق والقوم والموقع الجغرافي، رغم ادعائها الإنسانية.. إنها توبخ نفسها بادعاء الإنسانية والمعيار الحضاري الإنساني، الذي يناقض ممارستها في أكثر من موقع من العالم، ولسنا بحاجة إلى التذكير بتاريخها الاستعماري، كما لا نرى أننا بحاجة إلى القراءة في واقعها وممارساتها في فلسطين والبوسنة والشيشان، وغيرها من بلاد العالم.

والثقافة والحضارة، أية ثقافة، ترتكز إلى اللون أو العنصر أو القوم أو العرق أو الطبقة هي ثقافة عنصرية، عدوانية بطبيعتها وأصل تكوينها، لذلك فهي لا تستطيع أن تعيش وتمتد بدون عدو أو عدوان، فإن لم يوجد لها عدو حقيقي تصنع لنفسها عدوًا، ولو كان وهميًا، لمعالجة مشكلاتها الداخلية وتوجيه أنظار شعوبها إلى الخارج، فهي كالنار المتأججة التي سوف تأكل بعضها، إن لم تجد ما تأكله.

الإنسان في الثقافة الغربية

لا شك أن الحضارة الغربية أعطت الإنسان أقدارًا من الحرية والكرامة، وأعطته تطورًا ماديًا رهيبًا، ووفرت له سبل العيش المادي الرغيد، وأعطته حق التعبير وحق المقاضاة، وحققت التطور المذهل في الصناعة والإنتاج، وارتادت الفضاء، وأحدثت ثورة في عالم الاتصال.

لكن هذه الحضارة على الرغم من عطائها الكبير في وسائل الإنسان وأشيائه المادية، أخطأت في فهم الإنسان وطبيعته ومعرفة خصائصه.. ومن أكبر أخطائها إسقاط الجانب الروحي في الإنسان وإبعاد الدين والأخلاق عن التوجيه، كرد فعل لصراع علمائها مع رجال الكنيسة، وقد يكون لها فيه بعض الحق، لأن الدين المحرف وصور التدين التي صنعها رجال الدين عندهم، كان سببًا في إبعاد الناس عنه، إضافة إلى تواطؤ الكنيسة وموافقتها على الظلم وتسلط الإقطاعيين.

لقد أخطأت الحضارة الغربية لأنها لم تبحث عن العلة الحقيقية أو لم تبحث عن الدين الحق، وظنت أن التطور المادي سيكون بديلاً عن الدين، ولكن عقلاء الحضارة أنذروا قومهم بخطر هذا الانفصال، وأن طريق الحضارة إلى الانهيار(1).. وقد تكون خلاصة المشكلة أنها عالجت الانحراف بانحراف مماثل.

ولا يتسع المجال هنا لذكر جميع من تكلم عن هذه الحضارة، ولكن نكتفي بأشهرهم على فترات متعاقبة من القرن الميلادي العشرين، ثم بتعزيز أقوالهم بإحصائيات حديثة تؤكد ما يقولون.

ويقول فروم: «الوعد العظيم بالتقدم غير المحدود –وعد السيطرة على الطبيعة،

(1) من أفضل من تكلم عن الحضارة الغربية المفكر الألماني أوزفالد اشبينغلر، 1880–1936م في كتابه الضخم «تدهور الحضارة الغربية»، وقد صور الحضارة الغربية أدق تصوير، وذلك يعتبر من أعظم المؤلفات التي صدرت في النصف الأول من القرن العشرين.

والوفرة المادية، والسعادة القصوى للأغلبية العظمى، والحرية الشخصية غير المحدودة- هذا الوعد كان محط الآمال ومنبع الإيمان للأجيال منذ بداية العصر الصناعي، وساد الاعتقاد أن تحقيق الثروة والرفاهية للجميع سيحقق السعادة غير المحدودة للجميع.. ومن الثالوث: الإنتاج غير المحدود، والحرية المطلقة، والسعادة غير المحدودة، تشكلت نواة دين جديد اسمه التقدم، ولن نستطيع أن نفهم الصدمة التي أحدثها التحقق من إخفاق هذا الوعد (الوعد العظيم) في أيامنا هذه إلا إذا تصورنا كم كان عظيمًا ذلك الوعد، وكم كانت هائلة تلك المنجزات المادية والثقافية التي جاء بها العصر الصناعي..

فالحق أن العصر الصناعي أخفق في الوفاء بوعده العظيم، ويومًا بعد يوم يتزايد عدد الناس الذين أصبحوا مدركين لما يأتي[1]:

إن التقدم التكنولوجي نفسه خلف مخاطر أيكلوجية تهدد البيئة الطبيعية، ومخاطر الحرب النووية، وهذه أو تلك، أو كلتاهما معًا، يمكن أن تكون السبب في إنهاء كل أشكال الحضارة، وربما كل أشكال الحياة على ظهر الكوكب[2].

ثم يتساءل:

لماذا أخفق هذا الوعد العظيم ؟

ويجيب:

يرجع إخفاق الوعد العظيم للعصر الصناعي -إذا ما تغاضينا عن تناقضاته الاقتصادية الجوهرية- إلى المقدمتين النفسيتين الأساسيتين اللتين بني عليهما وهما:

1- أن الهدف في الحياة هو السعادة، أي تحقيق أقصى متعة، أي إشباع أي رغبة

(1) إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص140.

(2) إريك فروم، المرجع السابق، ص 20.

أو حاجة ذاتية تعن للمرء (مذهب اللذة الراديكالي).

2- أن الأنانية والسعي لتحقيق المصلحة الشخصية والجشع، وهي الصفات التي يولدها النظام من أجل تسيير أموره، لا تفضي إلى الانسجام والسلام»[1].

ويقول روبرت م.أغروس وجروج ن.ستانسيو في كتاب العلم في منظوره الجديد: «الحضارة الغربية ما برحت منذ عصر النهضة، تخضع لسلطان العلم التجريبي والنظرة العلمية القديمة، فهي المادية العلمية التي تؤكد أن لا وجود إلا للمادة، وأن الأشياء جميعًا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب»[2]، وأن «العقيدة الأساس للمذهب المادي هي أن الحقيقة كلها تكمن في المادة، وهذا رأي مقبول في آخر القرن الماضي غير أن أمورًا كثيرة في هذه الأثناء تكذب هذ الرأي»[3].

ويقول كولن ولسون: «ولا تستطيع الحضارة أن تستمر في وضعيتها العمياء الحاضرة منتجة ثلاجات أفضل وشاشات أوسع للسينما، مجردة البشر باستمرار من كل معنى الحياة الروحية». ويؤكد أن «أية حضارة تصل لحظة أزمتها يومًا ما، وأن الحضارة الغربية قد بلغت اللحظة الآن»[4].

ويقول جون فوستر دالاس: «إن هناك شيئًا ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج وفي هذه الحال النفسية، وأن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا إيمان صحيح قوي، فبدونه

(1) إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص 21.

(2) روبرت م. أغروس وجروج ن. ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989م، ص15.

(3) المرجع السابق، ص 16.

(4) كولون ولسون، سقوط الحضارة، ترجمة: أنيس زكي حسن، دار العلم للملايين، بيروت، 1963م، ص393.

يكون كل ما لدينا قليلاً»[1].

ولقد كتب الرئيس الأمريكي الأسبق ولسون قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالاً ختمه بقوله: «إن اختصار المسألة بأسرها هو ما يلي: إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها»[2].

ويقول ريتشارد نيكسون: «إن هناك نزعة سلبية جديدة تبتلى بها أمريكا اليوم، فهناك (جوقة) متزايدة من الحكماء والأساتذة والسياسيين الذي يتكلمون عن انهيار القوة الاقتصادية والزعامة السياسية للولايات المتحدة الأمريكية قائلين: شهدنا نهاية القرن الأمريكي، وهم يجادلون قائلين: إن الحضارة الأمريكية قد بلغت ذروتها وها هي الآن تواجه انهيارًا لا سبيل إلى عكس اتجاهه.. كما يشيرون إلى أن أعراض الانهيار تحيط بنا، فهناك مشكلة إدمان المخدرات التي تفشت بين شبابنا، وهناك أزمة في التعليم...»[3].

ويقول أيضًا: «... فقد أعلن الرئيس كارتر بعد جلساته الشهيرة مع مستشاريه في كامب ديفيد أن الولايات الأمريكية تعاني من علة عميقة الجذور»[4].

ويرى جوزيف كاميليري أن: «التكنولوجيا التي كان يفترض أن تحرر الإنسان من عبودية الأسلوب التقليدي في الاقتصاد، أضحت اليوم سيدة الكائن الإنساني، فالطالب الذي توجه للمخدرات، والهيبي الراكض بحثًا عن الفردوس الخداع، والمراهق الذي يتصدى لتهشيم النوافذ وتحطيم السيارات، والأفّاق الذي يجد مهربًا في خبل الكحول، كل هؤلاء إنما هم ضحايا مناخ القلق المتغلغل، والشعور بعدم الأمان ومرض

(1) جون فوستر دالاس، حرب أم سلام، العالمية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.، ص327.
(2) المرجع السابق، ص 347.
(3) ريتشارد نيكسون، نصر بلا حرب، ترجمة: محمد أبو غزالة، مركز الأهرام، القاهرة، 1989م، ص322.
(4) المرجع السابق.

العصاب.. إن خطورة الأزمة القائمة هي أنها ليست موجهة إلى الجانب الروحي للكائن الإنساني فحسب، وإنما لأنها تنخر العلاقات الإنسانية برمتها، فأصبح الكائن الإنساني ضحية (اللاتوازن).. ولأنه ضمن هذه المعادلة اللامتوازنة، فقد فَقَدَ إدراكه لدوره الخاص وهدفه في الكون وواجبه تجاه نفسه وبني جنسه وبيئته»[1].

ويقول أبراهام هـ. ماسلو تحت عنوان (العلم الخطر): «... لقد علمتنا العقود الأخيرة القليلة بأن العلم قد يصبح خطرًا يهدد مقاصد الإنسان العليا، وأن العلماء قد يصبحون وحوشًا طالما أن العلم أصبح كلعبة الشطرنج متعسفًا لا أهداف له، غايته الوحيدة اكتشاف الوجود المحسوس، وبذلك ارتكب العلم الخطأ الفاضح المصيري، الذي يقصي أسمى الخبرات الذاتية من ميدان الوجود القابل للاكتشاف»[2].

ويقول أدوارد بيهر تحت عنوان: «أمريكا التي تخيف لا تخيف): «باتت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة على الأرض، لكن الأزمة الأخلاقية التي تهزها بعنف لا سابق لها، ليست سوى نذير انحطاط كامن ينتظر لحظة الانفجار، الانحلال المتنامي للمدن وللعلاقات بين الأعراق والإثنيات، الصعود المخيف للجريمة.. وتسيطر عليها وباءات يصعب حصرها من الاعتداء الجنسي إلى الأمراض النفسية، إلى الفردانية التي تخلت عن روح الجماعة لتبحث عن التقوقع داخل العزلة والأنانية»[3].

من واقع الممارسة والتطبيق:

---

(1) جوزيف كاميليري، أزمة الحضارة، ترجمة: فيصل السامر، عرض الكتاب في جريدة الشرق الأوسط، 1986/1/12م.

(2) أبراهام هـ. ماسلو، خطر الانشقاق بين الدين والعلم، ترجمة ماجد الكيلاني، مجلة الأمة، ربيع الأول 1401هـ، ص18.

(3) إدوار بيهر، ترجمة وعرض: جريدة الخليج الإماراتية، مجلة الصائم، 1996/6/21م، انظر جريدة الحياة، 1995/5/28م.

هذه النظرة أو الفلسفة لموقع الإنسان في الرؤية الغربية، أو إن شئت فقل في الرؤية غير الإسلامية، والتي حاولنا استقراءها من أكثر من موقع جغرافي، أو أكثر من مدرسة، وأكثر من اتجاه، وأكثر من تاريخ –وحاولنا ما أمكن توثيق ذلك لتتسم نظرتنا بالموضوعية وعدم التحيز– انتهت على المستوى العملي أو على مستوى السلوك إلى واقع المعاناة الإنسانية الذي جاء ثمرة مرة لهذه الرؤية.. لذلك قد يكون من المطلوب منهجيًا، بعد وضعنا الملامح العامة للنظرية العامة للإنسان في الرؤية الغربية أن نلقي ضوءاً على واقع الممارسة والتطبيق، وسوف نكتفي هنا بإيراد إحصاءات عن هذا الواقع وهذه الشقوة والمعاناة، تم إعدادها من خلال مؤسسات الحضارة نفسها، حيث إن علم الإحصاء اليوم هو من أهم العلوم التي تحدد توجهات المجتمع ووجهته وتبصر بالأمراض التي تقبع داخله:

- ألمانيا: 30 ألف ينتحرون سنويًا[1].
- اليابان: 20 ألف انتحروا عام 1980م[2].
- المجر: أعلى نسبة انتحار في العالم[3].
- العنف في أمريكا: 135 ألف مسدس تجلب للمدارس الأمريكية كل يوم; 2.4مليون طالب مدرسة، يُسرق منه شيء; 282 ألف طالب يتعرض للاعتداء الجسدي كل شهر; 5200 مدرس يتعرض للضرب في الشهر; أكثر من 210 آلاف أمريكي قتلوا في حوادث عنف داخلية خلال العقد الأخير; 17 مليون ضحية لجرائم العنف في الفترة ذاتها; 70% من كل جرائم القتل تتم

(1) جريدة الشرق الأوسط، 1995/10/21م.
(2) جريدة البيان الإماراتية،1982/7/4م.
(3) جريدة الشرق الأوسط، 1995/5/21م.

بالمسدسات; 40% من جرائم القتل تتصل بالمخدرات(1).

- 120 ألف حادث انتحار تقع في فرنسا(2).
- 40 مليون أمريكي ضحايا الإجرام خلال عشرين عامًا.. الخسائر المادية المترتبة على الجريمة عام 1991م بلغت 19 مليار دولار(3).
- الحكومة الأمريكية استخدمت الأسكيمو في تجربة الأدوية المشعة (تقرير ذكرته شبكة سي أن أن) (4).
- أرباح الاتجار بالمخدرات حوالي 500 بليون دولار سنويًا، ويعادل هذا المبلغ مجموع الناتج القومي الإجمالي لثلثي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة(5).

واقع الديانة النصرانية:

الإنسان في الغرب ينظر إلى أرضه غالبًا لا إلى السماء، وحتى المسيحية، الدين الذي آمن به هذا الإنسان مئات السنين، لم تستطع أن تتغلب على النزعة الأرضية في الإنسان الغربي، بل بدلاً من أن ترفع نظره إلى السماء استطاع هو أن يستنزل إله المسيحية إلى الأرض ويجسده في كائن أرضي.. وهذه النظرة إلى الأرض أتاحت للإنسان الغربي أن ينشئ قيمًا للمادة والثروة والتملك تنسجم مع هذه النظرة.

وليس من الصعب استقراء هذه الظاهرة من الجسم الكنسي في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث نجد أن أعضاء هذا الجسم بلغوا 139.6 مليون شخص في عام 1982م.. وبلغ مجموع ما قدمه الأمريكيون من تبرعات ومساهمات إلى الكنائس

---

(1) مجلة المجلة، فهمي هويدي، 1997/9/6م.
(2) جريدة الخليج الإماراتية، 1993/5/25م.
(3) جريدة الشرق الأوسط، 1993/11/25م.
(4) جريدة الأهرام المصرية، 1983/5/5م.
(5) جريدة الحياة، 1995/3/7م.

في العام نفسه 60.39 مليار دولار.. كما تمتلك الكنائس وتدير عدة مئات من المعاهد والكليات والجامعات في أمريكا.. ففي عام 1981-1982م بلغ عدد معاهد التعليم العالي التي لها صلة بالكنائس 1978 معهدًا.. وكان عدد المدارس الدينية اليومية قد تضاعف مئات المرات منذ عام 1955/1954م ليبلغ في عام 1980م 18 ألف مدرسة تضم أكثر من مليوني تلميذ[1].

ومن أوائل الجامعات الشهيرة التي أسستها الكنيسة الأمريكية بهدف توفير التعليم الديني، جامعة هارفارد في عام 1636م، وكذلك جامعة ييل (Yale) ي عام 1710م التي أسست بهدف توفير (تعليم حر وديني في الولايات المتحدة الأمريكية).

ومن بين الجامعات المهمة ذات العلاقة بالكنائس الأمريكية، الجامعة الأمريكية وجامعة جورج تاون والجامعة الكاثوليكية، وكلها في واشنطن العاصمة، وكذلك جامعتا ديتون وبيلور في ولاية تكساس، وجامعة إموري في مدينة أتلانتا، وكلية بوسطن، وجامعة دنفر في كولورادو، وجامعة ديوك في كارولينا الشمالية... إلخ[2].

وما يقال عن دور الكنيسة وحضورها الفاعل في مجال التعليم، يمكن أن يقال أيضًا عن دورها وحضورها في مجال الإعلام.. ففي عقد الثمانينيات من القرن العشرين، احتلت صور نجوم البرامج الدينية المسموعة والمرئية أمثال بيلي غراهام (Billy Graham) وجيري فولويل (Jerry Falwell)، صفحات أبرز المجلات الأسبوعية وأغلفتها. وصارت برامجهم الدينية تشد المشاهدين أكثر مما تشدهم البرامج والأحداث الرياضية المشهورة والمهرجانات الفنية. وصار الدين مسيطرًا على

(1) البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، د. يوسف الحسن، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير، 1990م)، ص69-70.
(2) نفسه، ص70.

الثقافة الأمريكية.. فملكت البرامج الدينية، وبخاصة برامج الكنيسة المرئية Electric (Church) عقول وقلوب وجيوب الأمريكيين. وغدت هذه البرامج الدينية صناعة مزدهرة، وخلقت الآلاف من الوظائف والمئات من ملايين الدولارات. وقدرت نسبة الأمريكيين المستمعين والمشاهدين لبرامجها المرئية والمسموعة عام 1980م حوالي 47% من مجمل السكان[1].

ومع ذلك فإن ما يحدث في الكنائس، يعتبر مجرد انتماء فقط لا يشاركه الحس والوجدان والتدين.. فعلى سبيل المثال، نشرت إحدى الصحف البريطانية تقريرًا عن الوثنية الجديدة ذكرت فيه أن الكنائس تبدي قلقًا شديدًا إزاء تفشي مظاهر الوثنية في قطاعات متزايدة من الناس، حيث انصرف هؤلاء بصورة تدريجية عن الديانة المسيحية يبحثون عن الإشباع الروحي في كائنات الفضاء وعالم الخرافة[2].. إن الكنيسة أصبحت مجرد أبنية ومجرد ترديد كلمات خاوية من كل حقيقة وإيمان وصدق..

يقول أحد المفكرين الأمريكيين وصاحب أكبر مدرسة حديثة في علم النفس: تصبح مترابطة بطقوس ومراسيم تمارس في يوم معين من الأسبوع ولا تتعدى جدران المعبد، وتؤدى بلغة خاصة لا علاقة لها بالحياة، وبآلات موسيقية خاصة... وتصبح المفاهيم القدسية أجزاء متناثرة لا روابط بينها، وتنحصر بفئة قليلة من الناس (رجال الكهنوت)، وتتحول إلى متحف لا فائدة منه للحياة اليومية الجارية، ولا علاقة لها بالمجتمع الكبير المحيط أو بشؤون الإنسان اليومية.. والحقيقة أن مثل هذا التدين يفصل بين المثل العليا والواقع، ويمزق الفاعلية الضرورية للتفاعل بين الاثنين، ويميت التأثير المتبادل بينهما.

---

(1) المرجع السابق، ص71-72.

(2) صحيفة الجارديان البريطانية، 1996/11/18م، نقلاً عن مجلة المجلة، 1997/2/22م.

وماذا يحدث عندئذ ؟ لقد رأينا خلال التاريخ ما فيه الكفاية، لقد وقعت الكنيسة -تحت تأثير هذا الفهم المعطل- بمفاهيم مغمغمة إزاء الاستغلال والتفسخ الذي أصاب الحياة كأن ليس عند الدين ما يقدمه، شعارها في ذلك: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وبذلك تخلى هذا النوع من الدين عن محاربة الشر، بل استحال دعمًا للشرور اليومية[1].

وما يحدث في الكنيسة من انحرافات توازي الانحراف في المجتمع، فرجال الكنيسة متورطون في قضايا اغتصاب وفاحشة، غير اكتشاف عدد كبير من الأساقفة يمارسون الشذوذ ويتكلمون عنه بصراحة.. كما أصاب مرض فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز) رجال الكنيسة[2].

وكانت إحدى الكنائس الكبرى في بريطانيا قد أجرت دراسة استغرقت ثلاث سنوات حول الفئة العمرية التي ترتاد الكنائس. فتبين أن عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة قد انخفض إلى الثلث خلال سبع سنوات.. فمنذ عام 1987م وسن ما بين 14:17 قد انخفض بنسبة 35%، وسن ما بين 18- 21 انخفض بنسبة 34.7% من حضور الكنائس.. وأضاف التقرير أن الشباب لم يعد يشعر بالراحة في الذهاب إلى الكنيسة التي ترتبط في حسه بالملل وعدم الراحة.. وتحاول بعض الكنائس إدخال عناصر الجذب في البرامج الدينية من الغناء والرقص، ولكن يبدو أن مثل هذه المحاولات تبوء بالفشل.

(1) أبراهام ماسلو، خطر الانشقاق بين الدين والعلم، مرجع سابق، ص 18.

(2) لم يسلم حتى كبار الأساقفة من هذا التورط، انظر ما حدث لكبير أساقفة النمسا «هارتز هورمان جرور» فقد أحدث اتهامه هزة في المجتمع النمسوي وذلك لتورطه مع تلميذ سابق في مدرسة كاثوليكية، انظر جريدة القبس الكويتية بتاريخ 1995/6/20م، وانظر ملحق الوطن الكويتية 1987/10/1م، ونشرت المجتمع الكويتية 1996/4/23م تقريراً بعنوان: «موقع الدين في حياة الإنجليز».

يقول أحد رجال الكنيسة معلقًا على التقرير السابق: «إن مجرد الغناء والرقص لن يرغِّب الشباب في الدين، والمفترض على الكنيسة نفسها أن تطور وسائلها، وتكون أكثر تحديثًا بمعنى تقترب أكثر من هموم الشباب ومشاكلهم».. ويكشف التقرير الذي استجوب 60 ألف شاب أن الشباب يريد أن يرى دورًا ملموسًا للكنيسة(1).

السحر والشعوذة هما البديل للدين المحرف:

انتشر السحر والشعوذة بشكل مخيف في أمريكا كبديل للدين المحرّف، وتؤكد الإحصائيات أن 12% من الأمريكيين يمارسون دروب السحر والشعوذة، وقد قامت إحدى المؤسسات بتنظيم استفتاء شمل طلاب السنة الثالثة علم نفس في جامعات أمريكية، فأجاب 77% منهم بأن بعض تجارب السحر توحي بالثقة ونتائجها أكيدة.

وفي فرنسا، 15% من الفرنسيين يستشيرون عالم الفلك مرة كل عام.. 60% من الفرنسيين رجالاً ونساءً يؤمنون بالأبراج التي تجلب الحظ(2).

كبار المليارديرات في العالم يلجأون إلى الفلكيين لضبط سيطرتهم على السوق، منهم رئيس شركة مايكروسوفت العالمية(3).

العودة إلى إنسانية الإنسان

تعالت الصيحات في وجه هذا المد المنحل لتعود بالإنسان إلى حياته الصحيحة وإلى فهم طبيعته، وما صيحة كاريل في كتابه العظيم (الإنسان ذلك المجهول)(4)

(1) مجلة المجتمع، 1996/4/23م.
(2) جريدة العرب القطرية، 1980/12/20م.
(3) الخليج الإماراتية، 1996/3/20م.
(4) انظر إلى الكتب المهمة في هذا الشأن: إنسانية الإنسان لـ«دوبيه»؛ الإنسان بين الجوهر والمظهر لـ«إريك فروم»؛ العلم في منظوره الجديد لـ «روبرت م. أغروس» وزميله.

إلا تعبير صادق عن هذه العودة للأخلاق والدين والأسرة.

فعلى سبيل المثال يقول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون: «لنا أن نستوثق من هذه الحقيقة، وهي أن معنى الحياة لا يمكن أن يوجد في المادية المجردة، سواء أكانت شيوعية أم رأسمالية. وقد قضت المحكمة العليا بأن دستورنا ينص على عدم تدريس الدين في مدارسنا، ولكن إبعاد الدين عن مدارسنا ينبغي ألا يعني رفض الدين في الحياة.. ولأن الأديان العظيمة في العالم -وهي اليهودية والمسيحية والإسلام والبوذية- انبرت لموضوعات القيم الروحية والوفاء بها فقد بقيت توحي للناس قرونًا»[1].

كما خلص أغروس وستانسيو في كتابهما (العلم في منظوره الجديد) إلى: «أن مستقبل النظرة الجديدة يوحي بالعودة بثقافتنا إلى الإيمان بوجود الله الواحد، وبإعادة التأكيد على الجانب الروحي من طبيعة الإنسان»[2].

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أجريت دراسة استغرقت ثلاث سنوات، كانت بعنوان (الأسباب الاجتماعية للعنف)، انتهت إلى أن انهيار الأخلاق والأسرة هو السبب الذي أدى إلى هذا العنف الكبير في المجتمع الأمريكي.. وأوصت بما يلي:

1- نبذ الثقافة التي تمجد العنف والتي تضفي عليه مظهرًا اعتياديًا مألوفًا.

2- حماية وتعزيز المؤسسات الاجتماعية (العائلة، الأحياء، المراكز الدينية)، وهي التي تنشر وتحفظ قيم المجتمع.

3- إزالة المسدسات والمخدرات من المجتمع[3].

(1) ريتشارد نيكسون نصر بلا حرب، مرجع سابق، ص334.
(2) روبرت م.أغروس وجروج ن. ستانسيو، مرجع سابق، ص147.
(3) يشكل الأمريكيون نسبة 5.4% من سكان العالم ويستهلكون 50%من الإنتاج العالمي للكوكايين، مجلة المنعطف، عدد 9، ص 82.

4- توفير الفرص الاقتصادية للجميع لمكافحة الفقر والبطالة.

- وتنتشر في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية موجة جديدة من العفة والطهارة، حيث يتم حض الفتيات والفتيان في المدارس والمراكز الثقافية والاجتماعية أن يقولوا (لا)، إذ يجري استحداث سلسلة كاملة في العروض التعليمية الجديدة والبرامج العامة تم وضعها بهدف إقناع تلاميذ المدارس بأن الالتزام بالعفة قبل الزواج يعد هو الشيء الصواب(1).

- وفي استفتاء (أجري في الولايات المتحدة الأمريكية) تبين أن 75% من النساء يرين أن من الأفضل للأولاد أن يظل أحد الوالدين في المنزل لرعاية الأطفال(2).

- وفي بلجيكا، أدت حملة قادها ملكها (بودوان) قبل رحيله ضد الرذيلة إلى كشف النقاب عن شبكات للرذيلة الإجبارية بمساعدة كاتب أثار كتابه الذي حمل عنوان (إنهن طيبات جدًا يا سيدي) عن هذه الظاهرة ضجة في أنحاء البلاد، وأدى إلى حملة قوية على البغاء.. وذكر الكتاب أسماء تجار رقيق ومسؤولين في الحكومة ورجال شرطة ضالعين في هذه التجارة.. وتجارة الرذيلة مسموح بها في بلجيكا شريطة عدم استفادة طرف ثالث(3).

- وفي بريطانيا، اضطرت الدولة إلى سن قوانين جديدة للحد من العنف والإباحية في الـ (بي بي سي)، فقد أصدرت الحكومة تعليمات لتلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية لمراعاة المبادئ العامة للآداب وضبط مشاهد الجنس والعنف على الشاشة بهدف حماية الأطفال من التأثيرات السلبية لهذه المشاهد(4).

---

(1) جريدة العرب القطرية، 1994/2/8م.
(2) جريدة الخليج، ملحق آخر الأسبوع، 1995/6/8م.
(3) جريدة الخليج، 1993/9/7م.
(4) جريدة الشرق الأوسط، 1995/11/28م.

- وفي السويد، طالبت وزيرة الصحة والشؤون الاجتماعية بإغلاق محلات الجنس والعودة إلى الأخلاق[1].

الإنسان في الثقافة الإسلامية

ولعل من أهم الخصائص التي امتازت بها الحضارة الإسلامية، هي هذا الهدي المقصدي للإنسان، الذي أحدث التفاعل بين عطاء الوحي وتطلعات العقل وأشواق النفس، بحيث ارتقى بموقع ووظيفة الإنسان، من مجرد وسيلة وأداة للإنجاز الحضاري، إلى مستوى جعل معه المنجزات الحضارية التي يبتدعها وسائل مسخرة لخدمته وتحقيق إنسانيته، والارتقاء بموقعه وجعله مسخِّرًا للكون، بدل أن يكون مسخَّرًا له، فهو الإنسان المكلف، وفي الوقت نفسه الإنسان المكرم، وبذلك كان بين تعاليم الوحي وتطلعات العقل تواعد والتقاء، فأثمر ذلك كله إنسانية الحضارة الإسلامية، الذي رسم مساراتها وحدد أهدافها الوحيُ، وحقق إنجازاتها في المستويات المتعددة، وابتكر وسائلها الإنسانُ المكلف، قال تعالى﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:14).

فالهدي وبيانه من الوحي، والاستدلال والبرهان من كشف العقل، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:53). فالوحي يحدد الأهداف، والعقل يكشف السنن ويبدع الوسائل، التي تحقق الأهداف[2].

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، ليكون محلاً لهدايات الوحي، وميزه بالعقل، الذي جعله أهلاً للتكليف، ومنحه إمكانية الاختيار، وناط التغيير بإرادته، وجعله

(1) جريدة القبس الكويتية، 1982/3/21م.

(2) من فقه التغيير، عمر عبيد حسنه، ص 104 ما بعدها، بتصرف.

محور التغيير، ووسيلته، وهدفه، ومعياره، في الوقت نفسه.. وإنما يقاس نجاح مناهج التغيير، والعطاء الحضاري الذي تثمره، بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان، وتنمية مواهبه، وإطلاق ملكاته، ورعاية قابلياته، وتحقيق وعيه بذاته وانسجامه مع الكون والحياة، والارتقاء بتطلعاته، وسمو أهدافه، ليحسن القيام بدوره في التغيير نحو الأفضل، للوصول إلى البناء الحضاري المأمول، الذي يكرم الإنسان ويكرم به[1].

إن اكتشاف دور الإنسان وفاعليته في منهج التغيير، بدرجة كافية، وحسم هذه القضية، أصبح من الضرورات الملحة للعقل المسلم، ذلك أن العقيدة الإسلامية، جعلت الإنسان مدار الحركة التغييرية ومحورها، وأوكلت إليه مهمة التغيير والبناء، وكلفته بتحقيق الخلافة على هذه الأرض، ولفتت نظره إلى كيفيات التعامل مع الكون والحياة من حوله، وكيف أنها جميعًا مسخرة له، وناطت به إدارة الصراعات المختلفة، التي تجري في هذه الحياة، واستغلال ما على ظهر الأرض، واستخراج ما في باطنها، مستفيدًا من عنصر الزمن لإنتاج الحضارة واستعمار الأرض، حملاً لأمانة الاستخلاف، وتحقيقًا للعبودية التي خلق من أجلها.

أما أنه خليفة في الأرض، فبصريح قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:30).

وأما أنه مكلف بإدارة الحركة، وتحقيق الحضارة والعمران، فبدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:61).

ويقوم الإنسان بهذا الدور التاريخي، من خلال مؤهلاته، في ضوء هدايات الوحي ومكتسبات عقله المدرك، في عالم الشهادة، وشعوره وتأمله وحسن توظيف طاقاته

(1) رؤية في منهجية التغيير، عمر عبيد حسنه، وما بعدها، بتصرف.

الكثيرة، وقابلياته التي زوده الله بها، لكي يصنع تاريخه على هذه الأرض، بمعونة الله وهدايته.. فبحركته من خلال سنن الله، يتحرك التاريخ، ويتطور الزمن، ويتغير الحال، وتتبدل مظاهر الحياة(1) .

ونحن عندما نتحدث عن الرؤية الإسلامية للإنسان، وما تميزت به من أنها متأتية من معرفة الوحي اليقينية، ذلك أن الذي خلق الإنسان، أعلم بمن خلق: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(الملك:14)، فإننا لا ندعي أن واقع الإنسان اليوم في بلاد العالم الإسلامي يعيش السعادة والحياة الطيبة كما أرادها له الإسلام، لأن هذه الرؤية تعرضت لاختراق وغزو واستلاب حضاري واستبداد سياسي وعمالة ثقافية لحضارة الغالب، كما لم يعد يخفى على أحد.

وإنما الذي نريد بيانه أن بقية الرؤية الإسلامية أو بقية العقيدة الإسلامية التي هي محور الرؤية، حمت الإنسان المسلم من الكثير من الإصابات التي لحقت بإنسان الحضارة الغربية، وأن دور الثقافة والتربية الإسلامية اليوم هي وضع الخطط والبرامج لاسترداد الإنسان المسلم وتحقيق ولادة الإنسان المسلم كما أراده الله; والتدليل على أن هذه الإصابات التي لحقت به إنما جاءت بسبب بعده عن الإسلام وانسلاخه عنه، وليست بسبب تمسكه به، لأن الاستقراء التاريخي يؤكد أن فترات النهوض والتألق والإنجاز الحضاري كان مترافقًا مع العودة للإسلام.

ولعل الإمكان الحضاري والثقافي المستقبلي الذي يمتلكه الإنسان المسلم، والذي يؤهله للوراثة الحضارية، يتمحور حول امتلاكه هذه الرؤية، إضافة إلى امتلاكه للتجربة التاريخية لتنزيل النص على واقع الحياة، ورؤيته للإصابات المفجعة التي

(1) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، محسن عبد الحميد، ص 61 وما بعدها بتصرف، وانظر عبد المجيد النجار، الفصل الأول، القيمة الذاتية للإنسان، من كتاب قيمة الإنسان، ص11 وما بعدها.

انتهت إليها الحضارة الغربية على مستوى الإنسان على الرغم من تقدمها في مستوى أشيائه ووسائله[1].

لذلك فالرؤية الحضارية للإسلام هي الوحيدة التي يمكن وصفها بأنها إنسانية، لا لما انطوت عليه من عنصري الشمول والتوازن فحسب، بل لأن جميع عناصرها التربوية والنفسية والروحية والأخلاقية...إلخ، وأحكامها، جاءت على وفق الطبيعة الذاتية للإنسان -أي إنسان- مجردة من إطار الزمان والمكان ومن النظرات المبتسرة وردود الأفعال[2].

ومن هنا يمكن القول: إن كل ثقافة بشرية -بأي صورة من الصور- لا يمكن أن تكون إنسانية تصلح لجميع الناس في جميع العصور.. وهذا ما يميز الرؤية الإسلامية عن رؤية الثقافات والأديان الأخرى المعمول بها.

فإذا نظرنا إلى الثقافة اليهودية التي يدعي أصحابها أنهم: شعب الله المختار، نرى مدى العنصرية والتعصب والانحياز.. أما النصارى فحدّث ولا حرج، وما الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس ودخولهم القدس إلا مجرد مثال بسيط على الوحشية وانعدام الإنسانية.. وقس على ذلك النازية وتفضيلها الجنس الآري عضويًا وبأصل الخلق.. أما الحضارة المادية المعاصرة فيكفي ما ولدته الحرب العالمية الأولى والثانية من قتلى ودمار، وما يحدث اليوم في البوسنة والهرسك وكوسوفا وغيرها إلا دليل على التعصب للجنس واللون والدين، فضلاً عما يعانيه الملونون في أمريكا وأوروبا على الرغم من أنهم بشر من البشر.

أما ما يعلن في الوقت الراهن عن الإنسانية والثقافة الإنسانية، فإنه لا يعدو أن يكون شعارات ترفع لتذويب كل الحضارات غير الحضارة المادية، وما مؤتمرات السكان

(1) فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان، ص 377، 383.
(2) الثقافة الإسلامية، عدنان زرزور، ص 33.

والمرأة إلا دليل واضح لما تهدف إليه من مفاهيم في إطار الأسرة والحرية الجنسية التي أفرزتها تلك الحضارة المادية.. والمخيف هو السعي الحثيث لفرض تلك القيم اللاإنسانية من خلال منابر الأمم المتحدة وأروقتها.

وهنا يتأكد دور وأهمية الرؤية الحضارية للإسلام، فهي إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، تنظر إلى الناس بمقياس واحد لا تفسده القومية، أو الجنس، أو اللون.. وواضح أن بناء هذا النزوع وتحقيق هذه الصبغة هو من أثر القرآن الكريم الذي يعلن أن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة، من ذكر وأنثى.

وأن قيم النفس والأهل والقوم والوطن والأمة والإنسانية، لا تصلح أن تكون القيمة العليا والغاية القصوى التي يجتمع عليها الناس على مر العصور ومر الأجيال، ويلتف البشر حولها أبد الدهر، ولا الهدف الأسمى الذي تسير نحوه الإنسانية باستمرار(1).

ويكفي كمثال على ذلك أن كل الشعوب التي دخلت في الإسلام انصبغت بصبغة هذه الثقافة، وساهمت بعطائها، وقلما أن تجد اليوم شعبًا أو جنسًا أو لونًا إلا دخلوا في الإسلام، وهذا دليل على إنسانية هذه الثقافة الإنسانية(2).

(1) الثقافة الإسلامية، خصائصها، مستقبلها، عثمان عبد الكريم، ص 15 وما بعدها بتصرف.
(2) للتوسع في الموضوع انظر: «الثقافة الإسلامية في الجامعات»، دراسة تحليلية نقدية، دراسة أكاديمية حصل بها الباحث على درجة الدكتوراه عام 1999م.